جيوردانو برونو

لألفرد فيبر (*)

للأستاذ عبد الكريم الناصري

ولد جيوردانو برونو Giordano Bruno في مدينة « نولا » — القريبة من نابلي — سنة ١٥٤٨ . وقد انضم في صباه إلى الأخــوة الدومنيــكية ؛ ولــكن شغفه العميق بالطبيعة ، وتأثره بكتابات « نيقــولا الــكوسى (١) » و « رعوند لولوس (٢) » و « تيلسيو (٣) » سرعان ما حولاه عن حياة الرهبنة وعن المذهب الـكاثوليـكي . ثم ذهب مطوفاً في الآفاق ، فزار جنيف وباريس ولندن ، وزار ألمانيا فشرّق فيها وغرّب . ولـكن البروتستانتية لم تقنعه أكثر مما أقنعه مذهب آبائه . وعند عودته إلى إيطاليا ألقى القبض عليه بأمر من محـكمة التفتيش ، وسجن عامين ، ثم أعدم حرقاً في روما .

* * *

كان برونو أول ميتافيزيقي — في القرن السادس عشر — قبل نظرية مركزية الشمس بلا تحفظ . وكان ينظر إلى أفـلاك أرسطو وتقسيماته للعالم على أنها محض أوهام . فليس للمـكان مثل هذه الحدود التي رسمها له أرسطو ، هذه الحواجز المنيعة التي تفصل عالمنا عن ملـكوت عـلوى خاص بالملائـكة ، والأرواح المحضة ، والـكائن الأعلى . ما السماء إلا الـكون الذي لا حـد له ، وما النجوم الثوابت إلا شموس تحيط بها كواكب سيارة ، تراقبها توابع أو أقمار . والأرض كوكب من هاته الـكواكب ، ليس غير ، فما تشغل مكاناً مركزياً ممتازاً في السماء . ومثل ذلك يقال في شمسنا ، لأن الـكون نظام من أنظمة شمسية .

وإذا كان الـكون غير متناه فينبغي أن نقول : إنه لا يمـكن أن يكون ثمت لا نهايتان ؛ ولـكن وجود العالم لا يمـكن أن ينـكر ؛ إذن فالله والـكون شيء واحد . وبرونو — لأجل أن يتخلص من تهمة الإلحاد — يميز بين الـكون والعالم : فالله ، أو الموجود اللانهائي ، أو « الـكون » ، هو مبدأ « العالم » أو علته السرمدية : هو الطبيعة الطابعة (أو الطبيعة مصـــدراً Natura Naturanc) ؛ أما العالم فهو كلية معلولات الله أو ظواهره : هو الطبيعــة المطبوعة (أو الطبيعــة معــــلولاً Natura Naturata) . وفيلسوفنا يرى أن من الإلحاد أن يعتبر الله والعالم شيئاً واحداً ، إذ ليس العالم إلا مجموع الـكائنات الفردية ، والمجموع ليس بكائن ، وإنما هو لفظ فحسب . فأما اعتبار الله والـكون شيئاً واحداً فليس بإنكار له ، وإنما هو على الضد من ذلك ، تعظيم له ، لأنه توسيع لفـكرة الـكائن الأعلى إلى ما وراء الحـدود التي يفرضها عليه هؤلاء الذين يتصورونه كائناً « بجانب » الـكائنات الأخرى : أي كائناً محدوداً .

(*) يعد « تاريخ الفلسفة » للعلامة الفلسفي الألماني ألفرد فيبر (Weber) من أهم المصادر الباحثة في موضوعه ، وقد ترجمه إلى الانجليزية « فرانك تيلي » (Thilly) ، أستاذ الفلسفة بجامعة كورنل الأمريكية .

وراجع الطبعات الأخيرة من الترجمة « رالف بيرى » (Perry) ، أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد ، وأضاف إلي الكتاب تكملة في تاريخ الفلسفة منذ ١٨٦٠ (لأن كتاب فيبر ينتهي بشوبنهاور) . وهذا الفصل — الذي ترجمته عن الترجمة الانجليزية المذكورة ، والذي سأتبعه بفصول أخرى — هو الأول من (القسم الثالث) من الكتاب ، وهو القسم الباحث في « الفلسفة الحديثة » التي تبدأ ببرونو . وقد أضفت إلى المتن شروحاً تتعلق ببعض الفلاسفة أو المذاهب ، وبعض هذه الشروح مقتبس — باختصار — عن مواضع أخرى من الكتاب ، ولكني لم أشر إلى ذلك ، مكتفياً بهذا التنبيه .

(١) أو الكردينال نيكولاس كوسانوس ، إسمه الحقيق « كريبس » توفي سنة ١٤٦٤ . « كان يشتمل على سجايا برونو وديكارت ، وكان من الشجاعة بحيث ذهب ينتقد أخطاء الكنيسة علناً . ويوصي بالرجوع إلى فلسفة أفلاطون ، التي كان يراها هي ونظرية فيثاغورس في الأعداد شيئاً واحداً » ألف في الفلك والرياضيات ، وأبحاثه في هذا الباب تشتمل على بدايات مذهب كوبرنيكوس وإصلاح التقويم ، كما أن له أبحاثاً فلسفية قيمة .

(٢) الدون رعوند لولوس (١٢٣٤ — ١٣١٥) من مدينة بالما « مزاج غريب من اللاهوتي والطبيعي ، من المبشر و (التروبادور) ؛ سعى إلى تبسيط علم العرب بواسطة منهج عام أسماه (ارس ماغنا أي (الصناعة الكبرى) . وقد أكسبته تعاليمه — التي دونها في تآليف عديدة — أتباعاً متحمسين في خلال القرون التالية وكان همهم الأكبر اكتشاف حجر الفلاسفة وصنع الذهب » .

(٣) برنارد يتوتيليو (١٥٠٨ — ١٥٨٨) من كوسنزا مؤسس (الاكاديميا تيليسيانا) في نابلي كان راسخ القدم في (الانسانيات) . وهو في تصوراته الكوزمولوجية يقترب من المدرسة (الأيونية) ومذاهبها الطبيعية .

ومن هنا كان يحلو لبرونو أن يدعو نفسه « فيلوثيوس » أى « محب الإلهى » ، إرادة أن يميز فى وضوح بين تصوره لله وبين الإلحاد . بيد أن هذه الحيطة لم تجده نفعاً ، ولم تفلح فى تضليل قضاته .

والواقع أن إله برونو لا هو خالق العالم بل ولا هو محركه الأول ؛ وإنما هو « نفس العالم » . إنه ليس علة الأشياء المتعالية Transcendent والموقتة ؛ وإنما هو — على حد تعبير اسبينوزا — علتها الحالة Immanent ، أى الباطنة الدائمة . إنه مبدؤها المادى والصورى معاً ؛ إنه المبدأ الذى يحدثها وينظمها ويحكمها « من الداخل نحو الخارج » . إنه بالإيجاز جوهرها السرمدى . إن الموجودين اللذين يميز بينهما فيلسوفنا بلفظى « الكون » و« العالم » ليسا فى الحقيقة إلا شيئاً واحداً ، يعتبر حينا من مقام « الواقعية » (بالمعنى المدرسى) وحيناً من مقام « الإسمية[1] » .

فالكون الذى يحوى ويحدث جميع الأشياء ماله من بداية ولا نهاية ؛ أما العالم — أى مجموع الموجودات التى يحولها ويحدثها — فله بداية ونهاية . ههنا — إذن — تحل فكرة الطبيعة والإحداث Production الضرورى محل فكرة الخالق والخلق Creation الحر ، وتعود الحرية والضرورة لفظين مترادفين ويرجع الوجود والقدرة والإرادة فى الله فعلا واحداً لا يتجزأ .

وإبداع العالم لا يكيف « الكون الإله » على أى نحو من الأنحاء ، وهو الكيان الواحد الثابت السرمدى اللامتناهى ، والممتنع على القياس وللمقارنة . فإنه إذ يفيض نفسه[1] يحدث مالا عداد له من الأجناس والأنواع والأفراد ، ومالا نهاية له من شتى القوانين والنسب (التى تقوم حياة الكون وعالم الظواهر) من غير أن يصير هو نفسه جنساً أو نوعاً أو فرداً ، أو يخضع لأى قانون من القوانين ، أو يدخل فى أية نسبة من النسب . إنه وحدة مطلقة لا تقبل الإنقسام ، ولا شأن لها بالوحدة العددية . إنه فى كل شىء وكل شىء فيه . وليس من موجود إلا ويحيا ويتحرك ويتقوم فيه . إنه حاضر فى سنبلة القمح ، وفى حبة الرمل ، وفى الهباءة التى تسبح فى شعاع الشمس ، كما هو حاضر فى « الكل » الذى لا حد له — لأنه لا يقبل الإنقسام . وحضور (الواحد) اللانهائى فى كل مكان ، حضوراً جوهرياً طبيعياً ، يفسر — وفى الوقت نفسه يهدم — الإعتقاد الدينى بوجوده الفائق الطبيعة فى « الخبز المقدس » ، وهو الاعتقاد الذى يعتبره الدومنيكى السابق حجر الزاوية فى المسيحية . وبسبب هذا الحضر الحقيقى للكائن اللانهائى فى كل مكان ، كان كل شىء فى الطبيعة حياً ؛ فلا سبيل إلى إعدام شىء ؛ وما الموت نفسه إلا تحول فى الحياة من شكل إلى آخر ... إن مزية الرواقيين تستقر فى أنهم رأوا فى العالم موجوداً حياً ؛ ومزية الفيثاغوريين تستقر فى أنهم أدركوا ما تتسم به النواميس الحاكمة للخلق السرمدى من الثبات والضرورة الرياضية .

وبرونو يسمى « اللانهائى » أو « الكون » أو « الله » بالمادة أحياناً . وليست المادة عنده « اللاوجود » الذى قال به المثالية اليونانية وقال به المدرسيون . فإنها عنده غير ممتدة ، أى « لا مادية » فى ماهيتها ، وليست تقبل وجودها من مبدأ إيجابى خارج عنها (الصورة) ، وإنما هى بضد ذلك المصدر الحقيقى للصور كلها ، إذ هى تنطوى على أصول هذه الصور جميعاً ، وتبرزها بالتعاقب . فما كان أول الأمر بذرة يصير ساقاً ، ثم سنبلة ، ثم خبزاً ، ثم عصارة ، ثم دماً ، ثم نطفة ، ثم جنيناً ، ثم إنساناً ، ثم جثة ، ثم يعود إلى الأرض أو الحجر أو ما إلى ذلك من المواد ،

(١) Unsolda itself)

(١) المذهب الواقعى أو الشيئى (Realism) فى اصطلاح القرون الوسطى هو القول بأن الكليات أو التصورات العامة أو المثل (كالجمال أو الانسان مثلا) هى حقائق أو أشياء (RES) قائمة بذاتها مستقلة عن أفرادها ، وليست تجريدات عقلية مستفادة من الجزئيات والأفراد ، كما يرى الاسميون (Nominaliste) . فان هؤلاء لا يرون فى الكليات أكثر من أسماء معان أو جموع ، وتجريدات فى الذهن ليس غير . ومن هنا يتضح للقارىء أن الشيئية أو الواقعية فى عرف القرون الوسطى ترادف المثالية بالمعنى اليونانى ، وتقابل (أى تضاد) الواقعية بالمعنى الحديث أما الاسمية فهى ترادف الواقعية بالمعنى الحديث . وقد احتدمت المناجلات بداية من القرن الحادى عشر حول هذين المذهبين . لأنه إذا كانت الاسمية على حق ، فالكنيسة ، التى تعتبر نفسها حقيقة قائمة بذاتها فوق الكنائس الجزئية وفوق جماعات النصارى وأفرادهم ، ترتد مجرد اسم وتكون فى المحل الثانى بالقياس إلى الأفراد .

ليمر بعد بالمراحل نفسها من جديد. وهكذا نجد هنا شيئاً واحداً يتحول إلى كل شيء، ويبقى مع ذلك واحداً في جوهره. ومن ثم تبدو المادة وحدها ثابتة سرمدية، وجديرة بأن تدعى مبدأ. إنها — وهي المطلقة — تتضمن الصور والأبعاد جميعاً، وتطور من نفسها ما لا حد له من شتى الصور التي تستعلن فيها وتظهر. ونحن حين نقول إن شيئاً قد مات، إنما نعني أن شيئاً جديداً قد ولد؛ فإن انحلال مركب من المركبات معنـــاه تكوين مركب جديد.

والنفس البشرية أعلى ما تتطور إليه الحياة الكونية، فهي تنبثق من جوهر الأشياء كلها، بفعل القوة نفسها التي تخرج السنبلة من حبة الحنطة. على أن لكل موجود في الكون جسماً ونفساً، فجميع الموجودات « مونادات » حية يستعلن فيهـا « موناد المونادات » أو « الكون الإله » في صورة جزئية وهيئة خاصة. والجسمانية هي الأثر الناشىء عن قوة الموناد التوسعية، أوحركته نحو الخــارج؛ وفي الفكر ترجع حركة الموناد على نفسها. إن هذه الحركة المزدوجة، من توسع وتمركز، تقوّم حياة الموناد. وهو يدوم ما دامت هذه الحركة، ويموت حين تقف، ولكنه يختفي ليظهر وشيكا في صورة جديدة. وعلى هذا يمكن أن يوصف تطور الكائن الحي بأنه اتساع مركز حيوي، وتوصف الحيـاة بأنها ديمومة الكرة، والموت بأنه تقلص الكرة وعودتها إلى المركز الحيوي القوي انبثقت منه.

إننا سنصيب هذه التصورات كلها، وخصوصاً (تطوريّة) برونو، في أنظمة (ليبنتس) و (بونيه) و (ديدرو) و (هيجل) فإن فلسفة برونو تنطوي على أصولها البدائية البسيطة. هذا إلى أن هذه الفلسفة، من حيث هي توفيق بين الوحـدية والذرية، والمثالية والمادية، والنظر والملاحظة، تعتبر المصدر المشترك للمذاهب الأنطلوجية الحديثة.

(بغداد) **عبد الكريم الناصري**

إعــــلان

وزارة المعـــارف العمومية

الإدارة العامة للثقافة

الموسم الثقافي الأثري لعام ١٩٤٥—١٩٤٦

تعلن الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف أنها رغبة في نشر الثقافة الأثرية وإيقاف الجمهور على مدى تقدم المصريين في ميادين الحضارة والفنون على اختلاف أنواعها وعصورها قد نظمت بالاتفاق مع الجهات المختصة برنامجاً يتضمن إلقاء محاضرات دورية في المتـاحف والمباني الأثرية مصحوبة بزيارات تطبيقية وذلك على النحو الآتي:

١ — في المتحف المصري — أيام الجمعة — في الساعة العاشرة صباحا (باللغة العربية) وفي الساعة الثالثة بعد الظهر (بالانجليزية أو الفرنسية) فيما بين ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٥ و٥ أبريل سنة ١٩٤٦.

٢ — وفي دار الآثار العربية — في أيام الاثنين الأول والثالث من كل شهر في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر فيما بين ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٥ و٢٠ مايو سنة ١٩٤٦.

٣ — وفي المساجد والأبنية الأثرية الهامة والمتحف القبطي — في مواعيد يعلن عنها في الصحف اليومية وهذه المحاضرات مجانية وحدد عـدد الحاضرين في كل منهـا بخمسة وعشرين شخصا وتعطى التذاكر حسب أسبقية الطلب. أما البرنامج التفصيلي الذي يتضمن موضوعات المحاضرات وتواريخ إلقائها وأسمـاء المحاضرين فيمكن الاطلاع عليه عند أبواب المتاحف أو الحصول عليـه من قسم المتاحف والمعارض بالوزارة.

أما بطاقات الحضور فيمكن الحصول عليها من المتحف المصري ودار الآثار العربية قبل موعد إلقاء المحاضرة بثلاثة أيام على الأقل.

٤٤٥٤